الفصل الرابع

الإلحاد ونظرية الانفجار العظيم

الإلحاد ونظرية الانفجار العظيم

قلنا في مقدمة هذا البحث إن الإلحاد الحديث اعتمد ـ قبل مقدم الفيزياء الحديثة ـ على دعوتين اثنتين هما أزلية المادة وطول المدة التي جعلت من الممكن أن يتكون منها ـ بمحض المصادفة ـ هذه الكائنات التي نشهدها .

ثم جاءت نظرية الانفجار العظيم فأبطلت هاتين الحجتين الأساسيتين اللتين اعتمد عليهما الإلحاد الحديث ؛ إذ إنها تقتضي أن هذا الكون ـ بما في ذلك الزمان والمكان ـ له بداية مطلقة .

«إن العلماء الكونيين يعتقدون أن الانفجار العظيم يمثل ليس فقط ظهور المادة والطاقة من فراغ موجود سابقاً، بل خلق الزمان والمكان أيضاً. إن الكون لم يخلق في زمان ومكان. بل إن الزمان والمكان هما جزء من العالم المخلوق»[١] .

وعلى ذلك يوافق (ستيفن هوكنج) الذي دعاه بعضهم بـ (نيوتن العصر الحديث) ؛ حيث قال : «إن أعظم سوء فهم للانفجار العظيم هو القول بأنه بدأ كتلة من المادة في مكان ما من خلاء الفضاء . لم تكن المادة هي وحدها التي خلقت أثناء الانفجار العظيم، بل إن الزمان والمكان أيضاً خلقا ؛ وإذن فبالمعنى [الذي يقال به] إن للمكان بداية ، فللزمان أيضاً بداية»[٢] .

---

(١) تصميم الكون، ص١٢٣ .

"Cosmologists believe that the big bang represents not just the appearance of matter and energy in a preexisting void, but the creation of space and time too. The universe was not created in space and time; space and time are part of the created universe". Davies, cosmic, p.123.

(٢) الكون، بوزلو، ص ٤٦ .

"The biggest misunderstanding about the big bang is that it began as a lump of matter somewhere in the void of space. It was not Just matter that was created during the big bang. It was space and time that were created. So in the sense that time has beginning, space also has a beginning." Boslouh, Universe, p.64.

والانفجار العظيم يقتضي أيضاً أن تلك الكمية العظيمة من الطاقة التي انبثقت إثر ذلك الانفجار لم تجد من الوقت ما يكفيها لتتفاعل وتتحول كيف شاءت حتى يتكوَّن منها - بمحض المصادفة - هذا الكون الذي نسكنه، بل كان عليها أن تتحرك منذ البداية بطريقة معينة، وبسرعة محسوبة حتى تتكون منها المجموعات الشمسية والنجوم والأفلاك والحياة البشرية؛ لهذا يتساءل بعض الفيزيائيين متعجبين: «لماذا بدأ الكون بما يقارب ذلك المعدل الحرج من التمدد الذي يفرق بين النماذج التي تعود فتتقوض والنماذج التي تستمر في التمدد إلى الأبد؛ بحيث أنها تظل إلى يومنا هذا - أي بعد عشرة آلاف بليون سنة - متمددة بما يقارب المعدل الحرج؟ لو أن معدل التمدد بعد ثانية واحدة من الانفجار العظيم كان أقل ولو بجزء واحد من مائة ألف مليون مليون جزء، لعاد الكون فتقوَّض قبل أن يصل إلى حجمه الحالي»(١) .

ولهذه النظرية - إن صحت - ميزة أخرى بالنسبة لقضية الإيمان بوجود الخالق، إذ أنها تجعل مقدمات الأدلة الكونية في غاية الوضوح والتحديد. لقد كان الفلاسفة واللاهوتيون الغربيون - وما زال كثير منهم - حين يدلل على وجود الخالق بوجود الكون يتحدث عن الكون أو العالم بطريقة عامة غامضة، كما يتحدث عن وجه دلالته على خالقه بالطريقة نفسها. لكن علماء الفيزياء الفلكيين - ومن تبعهم من الفلاسفة واللاهوتيين - يشيرون الآن إلى شيء محدد هو مادة هذا الكون - وما يتعلق بها من زمان ومكان - مجموعة في أصغر حجم. فلم يعد

---

(١) تاريخ الزمان، هوكنج، ص١٢١١-١٢٢٢ .

"Why did the universe start out with so nearly the critical rate of expansion that separates models that recollapse from those that go on expanding forever, so that even now, ten thousand million years later, it is still expanding at nearly the critical rate? If the rate of expansion one second after the big bang had been smaller by even one part in hundred thousand million, The universe would have recollapsed before it ever reached its present size". Hawking, Time, p.121-122.

السؤال عن العالم بصفة عامة ولا غامضة وإنما عن هذه المادة المحددة. والسؤال أيضاً صار منضبطاً ومحدداً: إنه سؤال عن خلقها، عن كيفية حدوثها بعد أن لم تكن شيئاً.

إن المادة ـ بحسب هذه النظرية ـ ليست أزلية بل حادثة.

من أين جاءت إذن؟

إما أن يقال إن الله ـ تعالىٰ ـ هو الذي خلقها.

أو يقال إنه لم يخلقها شيء بل جاءت من العدم.

أو يقال إنها هي التي خلقت نفسها.

أو يقال إن لها خالقاً غير الخالق الحقيقي.

وبكل من هذا قال بعض الفيزيائيين.

ضاق بعضهم بالنظرية ذرعاً:

هذه المزايا للنظرية هي التي جعلت بعض الفيزيائيين الملحدين يشمئزون منها، ويودون أن لو لم تصح لأنها تقوِّض الأساس الفلسفي الإلحادي الذي يقوم عليه تصوُّرهم للعلم الطبيعي.

قال (جاسترو) ـ في بداية كتابه (الخالق والفلكيون) معلقاً علىٰ شعورهم هذا ـ: «إن في ردود فعلهم لشاهداً لطيفاً علىٰ الموقف الذي يتخذه العقل العلمي ـ وهو عقل يفترض أن يكون في غاية الموضوعية ـ تجاه دليل ـ يكشف عنه العلم نفسه يكون مصادماً للمعتقدات التي نعتقدها في مهنتنا؛ يتبين من هذا أن العالم يتصرف كما يتصرف كل منا حين تصطدم معتقداته مع الدليل. ينتابنا الضيق، وندَّعي بأن ليس هنالك من صدام، أو نخفيه بعبارات لا معنىٰ لها»[١].

---

(١) الخالق والفليكون، جاسترو، ص ١٥ ـ ١٦.

"Their reaction provides an interesting demonstration of the response of the scientific mind-supposedly a very objective mind-when evidence uncovered by science it=

ثم نقل بعض أقوالهم ليستشهد بها على ذلك فقال عن (إينشتاين): «لقد كانت فكرة الكون الذي ينفجر تزعجه؛ لأن لازمها أن للكون بداية. في خطاب إلى (دي ستر)... كتب إينشتاين يقول: «إن مسألة كون متمدد هذه تقلقني». هذه لغة عاطفية غريبة في مناقشة معادلات رياضية. أظن أن فكرة البداية في الزمان أقلقت إينشتاين بسبب لوازمها اللاهوتية»[١].

ونقل عن (إدنجتون) قوله: «إن فكرة بداية (الكون) مما أشمئز منه»[٢]. ثم نقل عن علماء طبيعة آخرين أقل شهرة من هؤلاء أقوالاً مماثلة، ثم عزا ردود فعلهم العاطفية هذه إلى أنهم لا يستسيغون القول بوجود ظاهرة طبيعية لا يمكن تفسيرها[٣].

لو أن (جاسترو) قال: «لا يمكن تفسيرها تفسيراً طبيعياً» لكان كلامه أدق. وذلك لأن المؤمن بالله ليس ضد التفسير بما هو تفسير، وإنما هو ضد الفلسفة الإلحادية التي تدّعي بأن العَالَم مكتف بنفسه، وأنه لذلك ليس هنالك من تفسير عقلاني ولا علمي لظواهره إلا تفسيراً يبنى على الأسباب الطبيعية. إن كثيراً من العلماء المعتقدين لهذه الفلسفة ينفرون عن تصوُّر خالق يحد من حريتهم؛ ولذلك فإنه حتى عندما يؤمن بعضهم بالخالق؛ فإنهم يريدونه خالقاً لا يتدخل في سير الطبيعة، يريدونه إلهاً كإله (إينشتاين) المتحد مع الوجود، أو الإله الذي هو مجرد محرك أول، بدأ الخلق ثم تركه وشأنه يسير بمقتضى القوانين الطبيعية التي أودعها إياه.

= self leads to conflict with the articles of faith in our profession, It turns out that the scientist behaves the way the rest of us do when our beliefs are in conflict with the evidence. We become irritated, we pretend the conflict does not exist, or we paper it over with meaningless phrasis". God, p.15-16.

(١) المصدر السابق، ص ٢٩.

"He was disturbed by the idea of a universe that blows up, because it implied that the world had a beginning. In a letter to De Sitter... Einstein wrote: "This circumstance of an expanding universe irritates me". This is curiously emotional language for adiscussion of some mathematical formulas. I suppose that the idea of a beginning in time annoyed Eindtein because of its theological implications". God, p.29.

(٢، ٣) المصدر السابق، ص ١٢٢ - ١٢٣.

لكن الاشمئزاز لا يغير من الواقع شيئاً؛ فهذه النظرية هي التي تتالى الشواهد كل يوم لتقوي احتمال صدقها، وليس هنالك من نظرية تدانيها في هذا، ولذلك أصبح المعارضون لها قلة شاذة.

واعترف آخرون بدلالتها على وجود الخالق:

فمنهم من قال إنه إذا صحت النظرية فلا مناص من القول بوجود الخالق.

يقول (وتكر): «ليس هنالك من أساس لافتراض أن المادة والطاقة كانت موجودة ثم أثيرت فجأة إلى الفعل إذ ما الذي كان يمكن أن يميز تلك اللحظة عن كل اللحظات الأخرى في الأزل؟ . . . الأبسط من هذا أن نفترض الخلق من العدم - الإرادة الإلهية تُكوِّن الطبيعة من العدم المحض»(١).

أما أنه يلزم القول بأن الطبيعة لا يمكن أن تتكون إلا بإرادة إلهية، فنعم، لكن لا يلزم من هذا أن يكون تكوينها من العدم المحض، إلا إذا افترضنا أن ذلك الإله لم يخلق إلا كوننا هذا الذي نشاهده وندرسه، لكن هذا ليس بلازم. بل إن الذي يعتقده المسلم أن لله - تعالى - مخلوقات سابقة في وجودها لوجود كوننا هذا.

نمضي في نقلنا عن القائلين بضرورة وجود الخالق. يقول (ملن): «أما السبب الأول لنشأة الكون في نطاق التمدد، فأمر إضافته متروكة للقارئ، لكن الصورة لا تكتمل إلا به تعالى»(٢).

(١) جاسترو، الخالق والفلكيون، ص١٢٢.

"There is no ground fir supposing that matter and energy existed before and was suddenly galvanized into action. For what could distinguish that moment from all other moments in eternity? ... It is simpler to postulate creation ex nihili, Divine will constituting nature from nothingnes". Jastro, Universe, p.122.

(٢) الإله، جاسترو، ص١٢٢.

"As to the first cause of the universe in the context of expansion, that is left to the reader to insert, but our picture is incomplete without Him". Jastro, God, p.122.

حتى (هوكنج) الذي يبدو من كتاباته أنه غير مؤمن بوجود الخالق يقول: «هذا يعني أن البداية الأولى للكون كانت قد اختيرت بعناية فائقة جداً إذا كان النموذج الساخن للانفجار العظيم قد كان صحيحاً منذ بداية الزمان. إنه لمن الصعب جداً أن نفسر لماذا بدأ الكون بهذه الطريقة بالذات إلا بأن نقول عن ذلك كان فعلاً لخالق كان يريد أن يخلق ذواتاً من أمثالنا»(١).

وقال بعض الملحدين: بل خلق بغير خالق.

كانت نظرية (الكون ذو الحال الثابت) التي أشرنا إليها قبل هي النظرية الشائعة بين الفيزيائيين وعلماء أصل الكون في العقد الخامس من هذا القرن الميلادي، وكانت هذه إحدى النظريات التي تقول بأن الكون أزلي. لكن الحقيقة التي دلت عليها المشاهدة أن هذا الكون في تمدد مستمر، أي أن أجرامه ما تزال تجري مبتعداً بعضها عن بعض، ولكن إذا كان هذا حالها منذ الأزل فما كان يمكن أن تكون بالكثافة التي هي عليها اليوم؛ فكيف ظلت الكثافة ثابتة مع هذا التمدد؟ ومن أين تأتي المادة الجديدة لتحل محل تلك التي تباعدت؟

قال (فريد هويل) ـ وهو أحد العلماء الثلاثة الذين صاغوا هذه النظرية ـ إنها تخلق من العدم، كلما ذهبت مجرات ظهرت ـ من العدم ـ ذرات هيدروجين ما تلبث أن يتكوّن منها مجرات أخرى لتحل محل تلك التي ذهبت. بهذه النظرية التي تسمَّى بنظرية (الخلق المستمر) استطاع أصحاب نظرية (الكون ذو الحال الثابت) أن يجمعوا بين القول بثبات حال الكون واستمرار تمدده.

(١) تاريخ الزمان، هوكنج، ص١٢٧.

"This means that the initial state of the univers must have been very carefully chosen indeed if the hot big bang model was correct right back to the beginning of time. It would be very difficult to explain why the universe should have begum in just this way except as the act of a God who intended to create beings like us". Hawking, Time, p.127.

يقول هويل: «إن أكثر الأسئلة بداهة عن الخلق المستمر هو هذا: من أين تأتي المادة المخلوقة؟ إنها لا تأتي من أي مكان، إنها فقط تظهر - إنها تخلق، في وقت ما لا توجد الذرات المتعددة التي تتكون منها المادة، وفي وقت بعده توجد. قد تبدو هذه فكرة في غاية الغرابة وأنا أعترف بأنها كذلك، لكن لا اعتبار لغرابة الفكرة في العلم الطبيعي إذا كانت فكرة عملية - أي ما دام من الممكن التعبير عنها بصيغة منضبطة، وما دامت نتائجها متوافقة مع المشاهدة»(١).

عندما اقترح هويل هذه النظرية ثارت عليه ثائرة كثيرة من العلماء الطبيعيين وفلاسفة العلوم، ووصفوا نظريته بأن تفسيرها للأشياء تفسير ديني لا يتناسب مع العلم الطبيعي. من ذلك ما قاله (بونجي): «هذه النظرية تتضمن افتراض الخلق المستمر للمادة من العدم. وما هذا بالذي يعنيه في العادة احترام الحتمية العلمية حتى بأوسع معانيها؛ لأن مفهوم انبثاق الأشياء من العدم هو في حقيقته مفهوم ديني أو سحري وإن أُلبس شكلاً رياضياً»(٢).

لست أدري إلى أي نظرية علمية أخرى يفر (بونجي)، لأنه إذا كانت نظرية الخلق المستمر تقول إن الذرات تخلق من العدم؛ فإن نظرية الانفجار العظيم تقول

(١) طبيعة الكون، ص ١١٢.

"The most obvious question to ask about continuous creation is this: Where does the created material come from? It does not come from anywhere. Material simply appears - it is created. At one time the various atoms composing the material do not exist, and at a later Time they do. This may seem a very strange idea and I agree that it is, but in science if does not matter how strange an idea may seem so long as it works-that is to say, so long as the idea can be expressed in a precise form and so long as its consequences are in agreement with observation". Nature' p.112.

(٢) السببية، بونجي.

"This theory involves the hypothesis of the continuous creation of matter ex nihilo. And this is not precisely what is usually meant by respecting scientific determinism even in its widest sense, for the concept of emergence out of nothing is characteristically theological or magical even of clothed in mathematical form". Causality.

إن الكون كله بما فيه من زمان ومكان قد خلق أو كان مسبوقاً بالعدم. وإذا كان (بونجي) قد أنكر نظرية الخلق المستمر لرائحتها الدينية؛ فإن غيره قد فرَّ إليها خوفاً من نظرية الانفجار العظيم، ورآها أبعد منها عن الدين! يرىٰ مؤلف كتاب (عالم داخل العالم) أن نظرية الانفجار تؤدي طبيعياً إلىٰ عالم جاء من العدم، وأن هذا هو الذي جعل (واينبيرج) يقول إن أكثر ما يجذبه إلىٰ نظرية الكون ذي الحال الثابت هو أنها باستبعادها لفكرة البداية الزمانية تعطينا صورة فيها أقل شبه ممكن بالصورة الدينية التقليدية لخلق الكون. ثم نقل عنه قوله: «إن نظرية الكون ذي الحال الثابت هي ـ فلسفياً ـ الأكثر جاذبية؛ لأنها الأقل شبهاً بالوصف المذكور في (النشأة)(*)»(١).

إن من حق كل عالم وكل مفكر أن يتخير من الأقوال والنظريات ما شاء، ومن حقه أن ينكر ما تدَّعيه بعض الديانات، لكن يجب عليه ـ احتراماً للعلم والعقلانية ـ أن يبني اختياره علىٰ حجج يراها قوية. أما أن يختار بمجرد الهوىٰ والعصبية ضد هذا الدين أو ذاك ثم لا يستحي من التصريح بذلك فأمر يدعو إلىٰ العجب. لكن لعله يفيد في تبديد تلك الفكرة الساذجة التي تفترض أن كل عالم من علماء الطبيعة هو إنسان مثالي، قد أفلح في تجريد نفسه عن كل هوىٰ وكل تعصب في بحثه عن الحقيقة.

ثم نقول إن الفكرة التي لم ترق لـ (واينبيرج) في نظرية الانفجار العظيم موجودة بعينها في نظرية الكون ذي الحال الثابت التي لجأ إليها. أليست هذه النظرية هي التي تقول كما رأينا، إن كل ذرة من ذرات الكون تخلق من العدم، أي إن لها بداية؟ نعم، إنها لا تقول كما يقول العهد القديم وكما تقول نظرية الانفجار إن الكون كله له بداية. لكن إذا كان (واينبيرج) إنما فرَّ من هذا القول لأنه قول ديني؛ فإن ديناً آخر ـ هو الإسلام ـ لا يقول بما يقول به العهد القديم ولا بما تقول به نظرية الانبثاق العظيم، بل يقول ـ كما سنرىٰ ـ أنه مع أن لكل شيء في الكون بداية؛ فإن سلسلة المخلوقات ليست لها بداية.

---

(١) عالم داخل العالم، ص ٢٢٦.

(*) يشير إلىٰ الفصل الأول من كتاب العهد القديم الذي بين أيديهم.

وإذا كان الملحدون من علماء الطبيعة وفلاسفة العلوم قد اعترضوا فيما مضىٰ علىٰ نظرية الخلق المستمر خشية أن تفتح أبواب الفيضان الديني ؛ فإن ملحدي اليوم منهم يلوذون بالقول بالخلق من العدم ليستغنوا بذلك عن القول بوجود الخالق ؛ وعليه فإن الدين ينبغي أن يكون هو الخاسر في الحالين . فإذا رؤي أن هنالك بديلاً للخلق من العدم ، قيل إن وجود الأشياء من العدم ليس من العلم في شيء وإنما هو من خرافات الدين والسحر . وإذا لم يكن له بديل إلا القول بوجود خالق ، قيل إنه شيء ممكن وعلمي ! كل هذا يشير إلىٰ أن العداء الغربي القديم بين العلم والدين ما زال يعشعش في أذهان كثير من المفكرين الغربيين ؛ فأين الحقيقة في هذا كله ؟

أ ـ إن كثيراً من الناس لا يعلمون أنه بالرغم من شيوع القول بـ (الخلق من العدم) بين المنتسبين إلىٰ الأديان الثلاثة ؛ فإنه لا وجود لهذا التعبير في شيء من كتبهم . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ معلقاً علىٰ قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** ﴾ [**هود** : ٧] ـ :

«فقد أخبر أنه خلق السموات والأرض في مدة ومن مادة . ولم يذكر القرآن خلق شيء من لا شيء ، بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم يكن شيئاً ، كما قال ﴿ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ [**مريم** : ٩] مع إخباره أنه خلقه من نطفة»[١] .

وبمثل ما قاله ابن تيمية عن القرآن تقول (دائرة معارف الأخلاق والدين) عن الكتب المقدسة عند اليهود والنصارىٰ : «إن عقيدة الخلق من لا شيء لم تؤكد صراحة في أي مكان من الكتاب المقدس»[٢] .

ب ـ ولكن حتىٰ الاستعمال الشائع لتعبير : (الخلق من لا شيء) بين المؤمنين

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) دائرة معارف الأخلاق والدين ، ج ٤ : ص ٢٢ .

"The doctrine of creation out of nothing -ex nihili- is nowhere expressly taught in Holy Scripture". Ethics, vol 4. p. 22

لا يعني (أن الأشياء تُخلق من العدم المحض)، وإنما يعني (أن الله ـ تعالىٰ ـ يخلقها من العدم). والفرق شاسع بين المفهومين؛ فالأول يعزو خلقها إلىٰ العدم، بينما الثاني يعزوه إلىٰ خالق أزلي ذي إرادة وقدرة.

ج ـ وإذن فإن الخلق من العدم بالمعنىٰ الذي دعا إليه (هويل) ليس مفهوماً دينياً، بل هو نقيض ما يقول به الدين، ولو صح لم يكن فيه فتح لأبواب الفيضان الديني كما توهم الذين انتقدوه، بل إغلاق أبدي لها؛ ذلك لأن الدليل الكوني علىٰ وجود الخالق إنما يرتكز كما رأيناه في صيغته الإسلامية علىٰ استحالة وجود المحدثات من العدم.

نعود إلىٰ سؤالنا الذي بدأنا به هذا المبحث من مقالنا: هل يمكن لشيء ما أن يأتي من العدم المحض؟

عندما قال (هويل) إن ذلك ممكن ثارت عليه ـ كما رأينا ـ ثائرة الفيزيائيين وفلاسفة العلوم، فاضطر لأن يعدل في نظريته، لكن ما شنع به علىٰ (هويل) صار الآن قولاً لكثير من علماء الفيزياء. يقول أحدهم في أول كتابه:

«في البداية لم يكن هنالك شيء، لا زمان ولا مكان، لا نجوم ولا كواكب، لا صخور ولا نبات، لا أناس ولا حيوانات. كل شيء جاء من الفراغ. لقد كانت البداية بالمكان والزمان وبلازما ساخنة جداً ومكونة من الكواركات، والإلكترونات، وغيرها من الجسيمات الدقيقة»[1].

إن فكرة حدوث الشيء من غير محدث فكرة متناقضة، يعسر بل يستحيل التعبير عنها بعبارة مستقيمة. إذا قلت إن الفراغ أو العدم هو الذي أحدث الشيء

---

(١) خلق المادة، فريتش، ص٣.

“In the beginning there was nothing, neither time nor space, neither stars nor planet, neither rocks nor plants, neither animals nor humanbeings”. Fritzch, Creation, p.3.

قال الدكتور محجوب معلقاً علىٰ هذا: «لو أن العبارة كانت « كل شيء ظهر في الفراغ» "came into the void". لكان القول ممكناً ومناسباً للتصور الفيزيائي. فهي عبارة لا تنفي وجود مؤثر خارجي ولا تدعي الوجود من العدم، وتستخدم (void) بمعنىٰ عدم المكان والزمان، والذين يكتبون العبارة علىٰ هذا النحو: (into) يقصدون انتقال الوجود من حال إلىٰ حال، وهو مقبول».

أو أوجده أو سبَّبه أو ما شابه ذلك من ألفاظ، كان الكلام متناقضاً، لأن الإحداث والإيجاد والتسبيب أفعال، فهي تحتاج إلى فاعل، والفاعل، والفاعل لا بد أن يكون شيئاً موجوداً، العدم هو نفي الوجود، فكيف يُحدِث أو يُوجِد؟

وإذا قلت كما يقول صاحب النص المنقول إن الشيء ظهر من العدم، فالكلام أيضاً غير مستقيم إذا فهمنا الفراغ أو العدم على إطلاقهما؛ لأننا سنقول حينئذ إن هذا الشيء الذي ظهر كان مستخفياً في الفراغ أو في العدم، ثم ظهر منه، ولكن إذا قلت إنه كان مستخفياً في العدم فكأنك قلت إنه لم يكن مستخفياً. إنك لا تستطيع أن تثبت للعدم صفة أو فعلاً، ولا تستطيع أن تتحدث عنه إلا بالنفي. ولذلك قال أهل السنَّة لمن زعم من غلاة المتأوِّلة الذين لا يثبتون لله ـ تعالى ـ صفة إيجابية، قالوا لهم إنكم فررتم من تشبيه الخالق بالمخلوقات، فوقعتم في تشبيهه بالمعدومات، وهو شر مما فررتم منه. إن العدم عدم، فلا يمكن أن يكون سبباً ولا موجداً، ولا محدثاً، ولا مكاناً للاستخفاء. وإذا لم يكن إلا العدم فلا يمكن أن يظهر أو يحدث أو يوجد زمان ولا مكان ولا حجر ولا مدر. وبما إن هذه الأشياء قد وجدت فعلاً؛ فإن وجودها دليل قاطع على أنها لم تكن مسبوقة بالعدم المحض.

إذا كان وجود الشيء من العدم أمراً مستحيلاً عقلاً ومنطقاً؛ فلا يمكن أن يقوم على صحته دليل من الواقع، لكن بعض الفيزيائيين يريدون إيهامنا بأن في علمهم ما يدل على أن بعض الأشياء تأتي من العدم. يقول (ديفز):

«قد يكون بمَلْكنا ـ لأول مرة ـ وصف موحّد للخلق كله. ليس هنالك من مشكلة علمية أشد أصالة ولا أكثر رهبة من معضلة الكيفية التي وجد بها الكون. أكان من الممكن أن يحدث هذا من غير فعل عُلوي؟ يبدو أن الفيزياء الكمية قد فتحت ثغرة في المسلَّمة القديمة «إنك لن تستطيع أن تحصل على شيء بلا شيء». إن الفيزيائيين يتحدثون اليوم عن «الكون خالق نفسه»، كون يندفع إلى الوجود

تلقائياً، كما يظهر الجسيم تحت النووي من لا مكان في بعض التفاعلات ذات الطاقة العالية. ليس من المهم إن كانت تفاصيل هذه النظرية صحيحة أو ليست بصحيحة، وإنما المهم أنه من الممكن الآن تصور تفسير علمي للخلق كله»(١).

يخبرنا (ديفز) هنا أن هنالك نظرية فيزيائية جديرة بالاعتبار تفسر لنا كيف أن الأشياء يمكن أن تأتي من العدم. ونقول إنك لكي تفسر حدوث شيء تفسيراً فيزيائياً، فينبغي أن تكون - على الأقل - قادراً على بيان صلته بالشيء الذي هو سبب حدوثه، أو الذي يفسر وجوده. ولكن إذا كنت تقول إن ذلك المحدِث هو «لا شيء»، فليت شعري كيف تستطيع أن تجد صلة بين الشيء واللاشيء؟ إن التمثيل بالجسيمات تحت النووية التي تظهر من لا مكان لن يفيد بشيء؛ لأن هذه ظاهرة مشاهدة لكنها لم تفسر بعد. والدكتور محجوب يرى - كما نقلنا عنه سابقاً - أنه ليس في هذا ما ينهض دليلاً فيزيائياً على ظهور الأشياء من العدم.

أما (تيلر) صاحب كتاب (عندما دقت الساعة صفراً) فبالرغم من أنه يشعر بالحرج الذي شعر به ملحدو الفيزيائيين من نظرية الانفجار العظيم، لكنه هو

---

(١) الخالق، ص ٨.

"For the first time a unified description of all creation could be within our grasp. No scientific problem is more fundamental or more daunting than the puzzle of how the universe came into being. Could this have happened without any supernatural input? Quantum mechanics seems to provide a loophole in the age-old assumption that "you can't get something for nothing'. Physicists are now talking about 'the selfcreating universe': a cosmos that erupts into existence spontaneously, much as a subnuclear particle pops out of nowhere in certain high energy processes. The question of whether the details of this theory are right or wrong is not important. What matters is that it is now possible to conceive of a scentific explanation of all creation".God, p.8.

قال الدكتور محجوب معلقاً على هذا:

"This, in any case is an event that occurs in space and time, within a domain bathed in matter and radiation. "Nothing" is nowhere to be seen in this situation" .

«هذه على كل حال واقعة تحدث في الزمان والمكان، وفي مجال طافح بالمادة والطاقة، إن (العدم) لا مكان له في هذا الوضع».

الآخر لا يجد منه مخرجاً إلا القول بخلق الأشياء من العدم أو خلقها لنفسها. فهو يقول: «تقتضي نظرية الانفجار العظيم أنه في وقت ما من الزمان الماضي خلق الكون فجأة، ثم إنه تمدد بعد ذلك بطريقة يمكن استكشافها بتفصيل، لكن قبل ذلك الوقت لم يكن هنالك كون ـ ولا كان زمان. من الوسائل التي يمكن أن نتفادىٰ بها المشكلات العظيمة التي يأتي بها هذا الانفجار العظيم أن ندَّعي بأنه لم يحدث قط»[1].

ثم ذكر أن هذا كان مسلك أصحاب نظرية الكون ذي الحال الثابت التي تبين بعد ذلك بطلانها. ما المخرج إذن؟ لم يجد (تيلر) مخرجاً إلا القول بأن الكون خلق من عدم ومن غير خالق، فقد ذكر في بداية كتابه أنه قد اقترحت أجوبة غير جازمة علىٰ السؤال عن كيف بدأ الكون؟ وأن هذه الأجوبة تعتمد علىٰ عنصر مهم جداً من عناصر الميكانيكا الكمية، هو أن الحوادث تحدث بطريقة الاحتمال لا الحتم؛ وعليه فهنالك مثلاً احتمال أن يظهر إلكترون من الفراغ. الحق أن الفراغ مليء باحتمالات كثيرة من بينها ظهور الكون نفسه، لقد خلق من العدم، أو كأنه.

ماذا يعني (تيلر) ـ والعلماء الذين أشار إليهم ـ بالفراغ أو العدم؟ إن كانوا يقصدون بها معنىٰ اصطلاحياً كالذي أشار إليه الدكتور محجوب؛ فلا اعتراض لنا عليه من الناحية المنطقية، لكن هذا لن يحل الإشكال؛ لأننا حينئذ سنسأل: ومن أين جاءت هذه المادة أو الطاقة التي كانت في هذا الفراغ؟ ثم إذا كان يتحدث علىٰ افتراض صحة نظرية الانفجار، كما يدل علىٰ ذلك سياق كلامه، فإنه هو وسائر العارفين بهذه النظرية يقولون إنها تقتضي أن الكون كان مسبوقاً بالعدم

---

(١) عندما دقت الساعة صفراً، جون تيلر، ص١٠٣.

"The Bog Bang requires that at some time in the past the Universe was suddenly created. After that it expanded in a manner that can be explored in detail. But before that time there was no universe-and no time! One way to avoid the enormous difficulties presented by the Big Bang is to deny it happened".

الخالص، وليس بهذا الفراغ الذي هو في الحقيقة ليس بفراغ. أما إذا كان يتحدث عن العدم بمعناه اللغوي المعروف الذي هو نفي الوجود؛ فإن كلامه يصير فعلاً مناسباً لحل المشكلة، لكنه يصبح كلاماً متناقضاً. وأنى للكلام المتناقض أن يأتي بثمرة؟!

إن ظهور الإلكترون من الفراغ أمر ممكن لأن الفراغ هنا هو الفراغ الاصطلاحي، لكن قياس ظهور الكون من العدم المحض على ظهور الإلكترون من فراغ ليس هو في الحقيقة بفراغ هو قياس مع الفارق.

ثم يكرر هذه الفكرة العجيبة فيقول لنا أنه قد لوحظ منذ عام ١٩٧٠م أن الكون يمكن أن يكون تذبذب الفراغ[١]، ويعترف بأن هذا أمر يصعب تصوره، فيشرحه بتمثيله بقطرة من المطر تظهر فجأة في سماء صافية؛ فالفراغ ـ كما يقول ـ هو السماء، والكون هو قطرة الماء. ثم يقول: «إنه إذا كان من الممكن ـ في الفيزياء الكمية ـ للجزيء أن يظهر ويختفي بالمصادفة، فكذلك يمكن للكون».

إنه لا يصعب تصوره، بل يستحيل. كيف يكون في فراغ حقيقي تذبذب أو غيره مما توصف به الأشياء الوجودية؟!

والقياس بقطرة الماء قياس مع الفارق. إن قطرة الماء ـ وإن بدا لنا أنها ظهرت فجأة في سماء صافية ـ لا نملك إلا أن نقول إنها تكوَّنت من أشياء وبأسباب سابقة لوجودها، وإلا لو كنا كلما بدا لنا أن شيئاً يظهر من العدم، وبغير سبب قلنا إنه لا سبب له فعلاً لما كان علم طبيعي ولا غير طبيعي. وإذا استطعنا أن نقول هذا عن قطرة الماء؛ فأنى لنا أن نقوله عن كون مسبوق بالعدم المحض كما يدعي (تيلر) وأمثاله؟!

وقال بعضهم: بل هو الذي خلق نفسه.

إن فكرة خلق الشيء لنفسه فكرة متناقضة؛ إذ لكي يكون الشيء خالقاً لا بد أن يكون موجوداً، ولكي يُخلق لا بد أن يكون غير موجود. وبما أنه من المستحيل أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في آن واحد؛ فيستحيل أن يكون خالقاً

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣.

لنفسه؛ هذا أمر يقتضيه المنطق الأولي. لكن (ديفز) يقول لنا: «القول بأن شيئاً محسوساً يتضمن تفسيراً لنفسه قد يبدو متناقضاً للرجل العادي، لكنه قول له سابقة في الفيزياء. بينما يمكن للمرء أن يسلِّم (متجاهلاً للآثار الكمية) أن كل حادثة فهي ممكنة، وتعتمد في تفسير [وجودها] على حادثة أخرى، فلا يلزم من هذا للسلسلة هذه أن تستمر إلى ما لا نهاية له، أو أن تنتهي عند الخالق، بل يمكن أن تأخذ شكل حلقة مغلقة؛ مثلاً: إن أربعة حوادث أو أشياء أو نظم: E_1, E_2, E_3, E_4، يمكن أن تكون معتمداً بعضها على بعض على النحو الآتي:

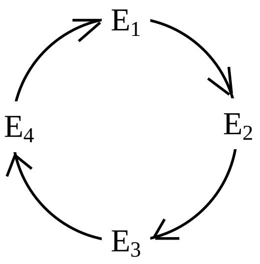

(عن كتاب الخالق، ديفز، ص ٤٧)[١]

وأقول: لنتذكر أننا إنما نتحدث هنا عن حوادث أو أشياء أو نظم لم تكن موجودة ثم وجدت؛ فكيف يمكن لها أن توجد؟

إذا قلنا إنها تظهر جميعاً دفعة واحدة، فلا يمكن لشيء منها أن يكون سبباً لآخر؛ لأن العلة لا تكون علة إلا إذا تقدمت معلولها بالزمان.

---

(١) الخالق، ديفز، ص٤٧.

"The idea of a physical system containing an explanation of itself might seem paradoxical to the layman but it is an idea that has some precedence in physics. While one may concede, (ignoring quantum effects) that every event is contingent, and depends for its explanation on some other event, it need not follow that this series either continues endlessly, or ends in God, It may be closed into a loop. For example, four events, or objects, or systems, E_1, E_2, E_3, E_4, may have the following dependence on each other" God, p.47.

وإذا قلنا إن بعضاً منها يظهر قبل بعض؛ فإن علة وجود ما يظهر منها أولاً لا يمكن أن يكون شيء من أفراد هذه السلسلة؛ كيف وهو لم يظهر بعد؟! وعليه فلا يمكن للحلقة أن تكون مسدودة.

ولا يمكن للسلسة أن تكون حلقة مسدودة كما يريد لها (ديفز)؛ لأنها إذا كانت كذلك كان كل فرد فيها علة ومعلولاً لفرد آخر، أي سابقاً في وجوده لوجود ذاك الفرد ولاحقاً له في الوقت ذاته، وهو أمر مستحيل عقلاً؛ وذلك أنه إذا كانت E_1 هي علة وجود E_2 وكانت هذه علة وجود E_3 وكانت هذه بدورها علة وجود E_4 ولكن إذا كانت الحلقة مسدودة فإن E_1 لن توجد حتى توجد E4، وهكذا دواليك؛ أي إنه لن يحدث شيء ألبتة من هذه الحوادث أو الأشياء أو النظم؛ فهل رأيت من حلقة أفرغ من هذه وأكثر استحالة؟

يمثل لنا (تيلر) حدوث الذرات من العدم بالفكرة التي تسمَّى بـ «رباط الحذاء»[1]. وهي - كما شرحها الكاتب نفسه - ترجع إلى زعم روائي ألماني أنه كاد أن يسقط في مستنقع لولا أنه انحنى وجذب رباط حذائه جذباً قوياً إلى أعلى فرفع نفسه!

لا أحد ممن يستعمل هذا التعبير يأخذ القصة مأخذ الجد لأن ما زعمه الروائي أمر مستحيل، لكن تعبير «برباط حذائه» أصبح يستعمل في اللغة الإنجليزية للدلالة على الاعتماد على النفس وعدم الاستعانة بالغير. أما (تيلر) فإنه - وأمثاله - يأخذون هذه الفكرة بحرفيتها مأخذ الجد ليفسروا لنا بها الطريقة التي تأتي بها الجسيمات من العدم.

يقول لنا (تيلر): «كأن هذه الجسيمات الخاصة تستطيع أن تجذب نفسها إلى أعلى بأربطة حذائها (وهي - في حالتها - القوى التي بينها) لتخلق نفسها من العدم».

إذا كانت هنالك جسيمات فعلية وكانت بينها قوى؛ فإنها قد وجدت وانتهت، فلا تحتاج لأن تخلق. وإذا كان الكاتب إنما يتحدث عن جزيئات بالقوة (أي في حيز الإمكان لا الوجود)؛ فكيف تكون بينها قوة تخلق بها نفسها؟!

---

(١) عندما دقت الساعة صفراً، جون تيلر، ص ٤٦.

لكن الكاتب يصف فكرة «رباط الحذاء» هذه بأنها (سيناريو) علمي محترم لخلق كون من العدم!

إن الإنسان ليعجب كيف يصدر مثل هذا الكلام من قوم عقلاء! ودعك قوماً يُعتقد أنهم يشقُّون الشَّعْر بفكرهم الرياضي؟! لكن الذي أوقعهم في هذا الهوس هو إصرارهم على الكفر ومحاولة إغلاقهم لكل بادرة علمية تفتح للإيمان باباً. ولولا أن هذا الهوس صادر عن أمثال هؤلاء العلماء الفيزيائيين لما استحق أن يُنظر فيه أو يُردَّ عليه أو يُعار أدنى اهتمام.

قلت في صدر هذا البحث إن كثيراً من الفيزيائيين الغربيين متأثرون جداً فيما يعبرون عنه من آراء - ولا سيما الآراء الدينية - بفلاسفة بلادهم. ولهؤلاء ولفلاسفتهم أولئك ومفكريهم آراء في غاية الشذوذ والتناقض لكنها حين تشيع تبدو وكأنها أمر عادي. من هذه الآراء فكرة خلق الشيء نفسه، فالفيزيائيون من أمثال (ديفز) ليسوا أول من قال بها، بل سبقهم إليها فلاسفة جعلوا هذه الفكرة عمدتهم في إنكارهم لوجود الخالق. من أشهر هؤلاء الفلاسفة والمفكرين الملحدين، بل الداعين إلى الإلحاد، بل الذين نشروا الإلحاد كما لم ينشره غيرهم حتى بين أبناء المسلمين - (كارل ماركس). اسمع ماذا يقول في تسويغ إلحاده:

«إن الكائن لا يعد نفسه مستقلاً إلا إذا وقف على قدميه، وهو لا يقف على قدميه إلا إذا كان مديناً لنفسه بوجوده. الإنسان الذي يعيش بفضل آخر يعتبر نفسه عالة. ولكنني لا أعتمد كلياً على فضل غيري إلا إذا كنت مديناً له ليس فقط ببقاء حياتي بل بإيجادها أيضاً، إذا كان هو مصدر حياتي. وإذا لم تكن حياتي من خلقي أنا فإن لها - بالضرورة مصدراً خارجاً عنها؛ ولذلك فإن فكرة الخلق فكرة يصعب اقتلاعها من الوعي العام، إن هذا الوعي لا يستطيع أن يتصور الإنسان والطبيعة بوصفهما موجودين بوساطة أنفسهما؛ لأن هذا يتناقض مع كل شيء محسوس في الحياة العملية... من السهل أن تقول لفرد معين ما قال

أرسطاليس: لقد ولدت من أبيك وأمك، ففيك أنتج الاتصال بين بشرين ـ وهو فعل لازم للجنس البشري ـ بشراً آخر. من الواضح إذن أن الإنسان مدين أيضاً بوجوده للإنسان حتى بالمعنى الحسي، وإذن فينبغي ألا تركز نظرك على جانب واحد فقط ـ جانب التسلسل اللانهائي الذي يقودك لأن تسأل: ومن أنجب أبي؟ ومن أنجب جدي؟ إلخ. بل ينبغي أن تضع في اعتبارك أيضاً الحركة الدائرية المدركة حسياً في ذلك التسلسل والتي بمقتضاها يكرر الإنسان نفسه بعملية التناسل، فيبقى الإنسان دائماً هو الفاعل. لكنك ستقول: سأعترف لك بهذه الحركة الدائرية فاعترف لي أنت أيضاً بحقي في أن أتابع التسلسل إلى الوراء فأسأل: من الذي أوجد الرجل الأول والطبيعة كلها؟ ولن أجيبك إلا بأن أقول إن سؤالك نفسه جاء نتيجة تجريد. اسأل نفسك كيف وصلت إلى هذا السؤال؟ اسأل نفسك ما إذا كان سؤالك قد وُجِّه من موقف لا أستطيع أن أرد عليه لأنه سؤال عنيد»[(١)] .

---

(١) الكتابات المبكرة، ص٣٥٦ـ٣٥٧.

"A being sees himself as independent only when he stands on his own feet, when he owes his existence to himself. A man who lives by the grace of another regards himself as a dependent being. But I live completely by the grace of another if I owe him not only the maintenance of my life, but also its creation, if he is the source of my life. My life is necessarily grounded outside itself if it is not my own creation. The creation is therefore an idea which is very hard to excise from the popular consciousness. This consciousness is incapable of comprehending the self mediated being. (Durchsichselbstsein) of nature and of man, since such a being contradicts all the palpable evidence of practical life ... ... Now it is easy to say to a particular individual what Aristotle said: You were begotten by your father and your mother which means that in you the mating of tow human beings, a human species-act, produced another human being. Clearly then, man also owes his existence to man in a physical sense. Therefore you should not keep sight of the one aspect the infinite progression which leads you on to the question: 'who begot my father, his grandfather, etc.? You should also keep in mind the circular movement sensuously perceptible in that progression whereby man reproduces himself in the act of begetting and thus always =

إن الإلحاد ليس موقفاً عقلانياً لكنه سوء خلق، إن سببه الأساس هو الاستكبار، وقد صرح (ماركس) نفسه في هذه النص بهذا الدافع وإن حاول أن يكسوه ثوب الحجة العقلانية. إنه يبدأ بتقرير حقيقة مهمة لا مراء فيها، لكنه يبدأ بها لا ليقرها بل ليتمرد عليها.

نعم إن الكائن لا يكون مستقلاً إذا كان غيره هو الذي خلقه، ولكن ماذا إذا كانت الحقيقة التي لا مناص عنها هي أن الإنسان مدين بوجوده لغيره؟ ماذا يجديه التمرد على هذه الحقيقة ؟ ماذا يجديه أن يعيش في وهم كونه مستقلاً؟ و(ماركس) نفسه لم يستطع في كلامه اللَّجْلَجْ هذا أن ينجو من كون الإنسان مدين بوجوده لغيره. كل ما هنالك أنه جعل هذا الغير إنساناً آخر بدلاً من أين يعترف بأنه الله تعالى؟ لكن النتيجة واحدة من حيث كون الإنسان الفرد المعين لا يوجد نفسه بل يوجده غيره. لكن (ماركس) يلعب بالألفاظ فيريدنا أن نتصور أنه إذا كان الموجد لنا أناس آخرون أمثالنا فنحن البشر نوجد أنفسنا. وهذا ليس بصحيح. إن كون شيء ما فعله إنسان غيري لا يعني أنني أنا الذي فعلته مهما كان الشبه بيني وبين ذلك الفاعل. فحتى لو تنزلنا مع (ماركس) وقلنا إن الذي يخلق الإنسان هم أناس آخرون؛ فإن هذا لا يعني ألبتة أن الإنسان هو الذي يخلق نفسه؛ وإذن فكل إنسان فرد إذا قصر نظره على خلقه وإيجاده، فلا مناص له من الاعتراف بأنه لم يوجد نفسه بل أوجده غيره؛ وإذن فقد ذهب عنه الاستقلال الذي دفعه إلى إنكار خالقه الحق.

إن من عجيب حجة (ماركس) هذه أنه تابعها افتراضاً وراء افتراض حتى

= remains the subject. But you will reply: I grant you this circular movement, but you must also grant me the right to this progress back to the question : Who begot the first man and nature and nature in general? I can only answer your question is it self a product of abstraction. Ask yourself how you arrived at that question. Ask yourself whether your question does not arise from a standpoint to which I cannot reply because it is a pervese one" .

خنقته فلم يستطع منها فكاكاً، لقد قادته حجته إلىٰ أن يجعل خصمه يسأل سؤالاً مشروعاً هو: من الذي خلق الرجل الأول والطبيعة كلها؟ لم يستطع خلاصاً إلا بقول إن السؤال سؤال عنادي؛ لماذا؟ ملخص إجابة (ماركس) أنك عندما تسأل عن خلق الإنسان والطبيعة فإنك تفترضهما غير موجودين، ولكن إذا كانا غير موجودين فأنت أيضاً غير موجود لأنك إنسان وطبيعة، وإذا كنت غير موجود فلا تستطيع أن تفكر ولا أن تسال. لكنه يفترض أن خصمه من الذكاء بحيث يبين له مرة أخرىٰ أن سؤاله مشروع، «إنني لا أريد أن أفترض عدم وجودهما، وإنما أسأل كيف نشآ، كما قد أسأل عالماً عن تكوين العظام. . إلخ».

وقال بعضهم: تسلسل الحوادث يغني عن الخالق.

قالوا: لماذا لا يكون سبب الشيء الحادث شيئاً آخر حادثاً، وسبب هذا الثاني ثالث حادث، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية له؛ وبهذا نستغني عن الحاجة إلىٰ الانتهاء إلىٰ خالق أزلي؟

يبدو أن (ديفز) يظن أن هذا التسلسل أمر ممكن عقلاً، فهو يقول:

«وباختصار، ما دام كل فرد من أفراد السلسلة قد فسر؛ فإن السلسلة تكون ـ بهذا ـ قد فسرت. وما دام كل فرد في السلسلة مديناً بوجوده إلىٰ فرد قبله؛ فإن كل فرد من أفراد السلسلة اللانهائية يكون قد فسر. فالسؤال عن سبب للكون كله له وضع منطقي مختلف عن السؤال عن شيء أو حادث في داخل الكون»(١).

نقول أولاً إن مثل هذا الكلام ـ مع زيفه الذي سنبينه ـ كان يمكن أن يقال قبل

---

(١) الخالق، ص٣٧.

"In short, so long as each individual member of the succession is explained then (ipso facto) the succession is explained. And as every member of the chain owes its existence to some preceding member or members, each member of the infinite chain is explained. Asking for a cause of the whole universe has a different logical status from asking for a cause of an object or event within the universe". God, p.37.

نظرية الانفجار العظيم، أما مع القول بها فلا مكان له؛ لأننا إذا سلَّمنا معها بأن للكون بداية مطلقة؛ فبأي حق علمي نتحدث عن إمكانية علل ومعلولات لا نهاية لها؟! ثم نقول: حقاً إنه إذا أمكن تفسير وجود كل فرد من أفراد سلسلة الموجودات الحادثة؛ فإن وجود السلسلة لا يحتاج بعد ذلك إلىٰ تعليل، وحقاً أيضاً أنه ما كل ما ينطبق علىٰ أفراد السلسلة يلزم أن ينطبق علىٰ السلسلة نفسها.

لكن المشكلة التي غفل عنها القائلون بهذا الرأي، أن العلة التي تحتاج هي نفسها إلىٰ علة لا تُفسِّر ما يقال إنه معلولها تفسيراً كاملاً. إن كثيراً من النظار يخلطون بين التسلسل في الحوادث ـ أي حادث قبله حادث، قبله حادث، إلىٰ ما لا نهاية له، وهو ممكن عقلاً ـ والتسلسل الذي يُسمَّىٰ بالدَوْر القبلي الذي هو مستحيل عقلاً، وحتىٰ الذي فطنوا إلىٰ التمييز بين التسلسلين، مثل (باسمور)، أخطؤوا في ظنهم أن التسلسل في العلل والمعلولات هو من النوع الأول، مع أن الحقيقة ـ كما يبينها أصحاب النظر من المسلمين ـ هي أنه من النوع الثاني.

يقول (باسمور): «قارن بين ما يلي: (١) لكل حادث سبب. (٢) لكي نعرف أن حادثة وقعت فيجب أن نعرف: كيف حصلت؟. الأولىٰ تقول لنا ببساطة إذا رغبتم في معرفة سبب لحادثة ما، فهنالك دائماً سبب كهذا يمكننا اكتشافه. لكنها تتركنا أحراراً في أن نبدأ أو ننتهي في أي نقطة نشاؤها في بحثنا عن الأسباب. إننا نستطيع إن أردنا أن نستمر في بحثنا عن العلة وعلة العلة، وهكذا إلىٰ غير نهاية. لكن لا يلزمنا أن نفعل هذا. إن وجدنا علة شيء فقد وجدنا علته أيّاً كانت علة علته. لكن القول الثاني لا يسمح إطلاقاً بأن نقرر أن حادثة ما قد حدثت. . . . لأننا إذا كنا لا يمكن أن نعلم أن حادثة وقعت إلا إذا عرفنا الحادثة التي هي علتها، كذلك لا يمكن أن نعرف أن هذه الحادثة التي هي العلة قد حصلت إلا إذا عرفنا علتها، وهكذا إلىٰ غير نهاية. موجز القول أنه إذا كان للنظرية أن تفي بوعدها، فلا بد للسلسلة من أن تقف عند حد ما، لكن النظرية نفسها تقتضي ألا تقف

السلسلة عند أي حد ـ إلا إذا قيل بصحة الدعوىٰ بتميز حادثة من نوع معين، كحادثة خلق العالم»(١).

ذلك قول **باسمور**. أما شيخ الإسلام **ابن تيمية** فيقول:

«والتسلسل نوعان: تسلسل في المؤثرات، كالتسلسل في العلل والمعلولات، وهو التسلسل في الفاعلين والمفعولات، فهذا ممتنع باتفاق العقلاء. ومن هذا الباب تسلسل الفاعلين والخالقين والمحدِثين، مثل أن يقول: هذا المحدَث له مُحدِث، وللمُحدِث مُحدِث آخر إلىٰ ما لا يتناهىٰ. فهذا مما اتفق العقلاء ـ فيما أعلم ـ علىٰ امتناعه؛ لأن كل مُحدَث لا يوجَد بنفسه فهو معدوم باعتبار نفسه، وهو ممكن باعتبار نفسه، فإذا قُدِّر من ذلك ما لا يتناهىٰ لم تصر الجملة موجودة واجبة بنفسها؛ فإن انضمام المحدث إلىٰ المحدث، والمعدوم إلىٰ المعدوم، والممكن إلىٰ الممكن، لا يخرجه عن كونه مفتقراً إلىٰ الفاعل له، بل كثرة ذلك تزيد حاجتها وافتقارها إلىٰ الفاعل، وافتقار المحدثين والممكنين أعظم من افتقار أحدهما، كما أن عدم الاثنين أعظم من عدم أحدهما؛ فالتسلسل في هذا والكثرة لا تخرجه عن الافتقار والحاجة، بل تزيده حاجة وافتقاراً. فلو قدر من الحوادث والمعدومات والممكنات ما لا نهاية له، وقدر أن بعض ذلك معلول لبعض أو لم

---

(١) الحِجاج الفلسفي، ص ٢٩.

“compare the following: (1) every event has a cause; (2) to know that an event has happened one must know how it came about. The first simply tells us that if we are interested in the cause of an event, there will always be such a cause for us to discover. But it leaves us free to start and stop at any point we choose in the search for causes; we can, if we want to go on to look for the cause of the cause and so on (ad infinitum), but we need not do so; if we have found a cause, we have found a couse, whatever its cause may be. The second assertion, however, would never allow us to assert that we know that an event has happened ... . for if we cannot know that an event has taken place unless we know the event that is its cause, then equally we cannot know that the cause-event has taken place unless we know its cause, and so on as infinitum, In short, if the theory is to fulfill its promise, the series must stop somewhere, and yet the theory is such that the series cannot stop anywhere-unless, a claim of privilege is sustained for a certain kind of event, e.g. the creation of the Universe”. Reasoning, p.29.

يقدر ذلك؛ فلا يوجد شيء من ذلك إلا بفاعل صانع لها خارج عن هذه الطبيعة المشتركة المستلزمة للافتقار والاحتياج؛ فلا يكون فاعلها معدوماً ولا محدثاً ولا ممكناً يقبل الوجود والعدم، بل لا يكون إلا موجوداً بنفسه واجب الوجود لا يقبل العدم، قديماً ليس بمحدث؛ فإن كل ما ليس كذلك فإنه مفتقر إلىٰ من يخلقه، وإلا لم يوجد.

وأما التسلسل في الآثار، كوجود حادث بعد حادث، فهذا فيه الأقوال الثلاثة المتقدمة: إما منعه في الماضي والمستقبل، كقول جهم وأبي الهذيل. وإما منعه في الماضي فقط، كقول كثير من أهل الكلام. وإما تجويزه فيهما، كقول أكثر أهل الحديث والفلاسفة»[١] .

إن صِدْقَ ما يقوله ابن تيمية يتضح إذا تذكرنا أننا إنما نتحدث هنا عن العلل التامة؛ فالعلة التامة لمعلول ما - سواء كانت هذه العلة شيئاً واحداً أو مجموعة أشياء - هي الشرط الضروري والكافي[٢] لإخراجه إلىٰ حيز الوجود، وجعله بالصفة التي هو عليها. إذا فكرنا ملياً تبين لنا أنه من المستحيل أن توجد وجوداً فعلياً سلسلة - متناهية أو غير متناهية - من أمثال هذه العلل التامة؛ لماذا؟

---

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ج١: ص ٤٣٦-٤٣٨.

(٢) الشروط ثلاثة: شرط ضروري غير كاف، وشرط كاف ليس بضروري، وشرط ضروري وكاف. الشرط الضروري هو الذي لا يكون المشروط إلا به، لكن وجوده لا يكفي لوجود المشروط، كالأوكسجين للحياة مثلاً؛ فإنه ضروري لوجودها واستمرارها، ولكنه قد يوجد ولا توجد الحياة ولا تستمر. الشرط الكافي هو الذي يكفي لوجود المشروط لكن المشروط قد يوجد بدونه، كقطع الرأس؛ فإنه يكفي لقتل الإنسان لكن الإنسان قد يموت من غير أن يُقطع رأسه. وأما الضروري الكافي فهو الذي يجمع الأمرين معاً، وذلك كإرادة الله تعالىٰ؛ فإنها شرط ضروري لحدوث الأشياء، فالشيء لا يحدث إلا إذا أراد الله حدوثه، وهي في الوقت نفسه شرط كاف؛ لأن الشيء يحدث بمجرد إرادة الله لحدوثه؛ ولذلك نقول: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن». فقولنا: «ما شاء الله كان» تعبير عن كفاية الإرادة، وقولنا: «ما لم يشأ لم يكن» تعبير عن ضروريتها.

لنفترض جدلاً أن السلسلة المتناهية التالية موجودة فعلاً:

ح/ ع١ح/ ع٢ح/ ع٣ح/ ع٤ح/ ع٥ح/ ع٦ح/ ع٧ح/ ع٨ح/ ع٩

إذا سألنا عن علة الحدث ح قيل لنا إنها ع١، لكن ع١ هو نفسه حدث، فلا بد له إذن من محدث؛ فما محدثه؟ إنه ع٢ الذي هو نفسه حدث، ومحدثه الحدث ع٣، ومحدث٣ هو الحدث٤ وهكذا حتى نصل إلى ح/ع٩. هذه العلة هي أيضاً حدث فما محدثها؟ إذا لم يكن لها من محدث فإما أن تكون هي أحدثت نفسها، أو تكون قد جاءت من العدم، لكن كلا هذين الأمرين مستحيل عقلاً كما قد بيَّنا سابقاً. إذن ح/ع٩ غير موجودة، وإذا كانت غير موجودة فإن ح/ ع٨ التي افترضناها معلولة لها غير موجودة أيضاً وهكذا حتى نصل إلى ح فنقرر أنها غير موجودة لأن علتها ما كان يمكن أن توجد.

وإذن فالسلسلة التي افترضناها سلسلة واقعية من العلل والمعلولات ليست في الحقيقة إلا سلسلة وهمية من المعدومات.

إذا كان من المستحيل على مثل هذه السلسلة أن تكون غير متناهية، أفلا يمكن أن تكون متناهية؟ كلا! لأننا إذا افترضنا السلسلة غير متناهية، فمعنى ذلك أن ح لا توجد إلا إذا وجدت علتها ح/ع١، وهذه لا توجد إلا إذا وجدت علتها، وهكذا إلى ما لا نهاية له؛ أي أن ح لن توجد حتى يوجد عدد غير متناه من العلل والمعلولات قبلها. ولكن هذا معناه أن وجودها عُلِّق على شرط يستحيل أن يتحقق، فهي إذن لن توجد أبداً. إن مثل هذا - كما كان يقول بعض المتكلمين الإسلاميين - كمثل قولك لإنسان: لا أعطيك درهماً حتى أعطيك درهماً قبله؛ فلن تعطيه إذن درهماً أبداً.

نخلص من هذا إلى أنه ما كان ليوجد شيء في هذا الكون لو أن وجود أشيائه كان معتمداً على أشياء كمثلها حادثة مفتقرة إلى من يحدثها. لكن بما أن وجود الحوادث أمر مشاهد؛ فلا بد أن السبب الحقيقي لوجودها شيء من غير طبيعتها

الحادثة، أي شيء أزلي ليس لوجوده بداية ولا له نهاية. هذا الفاعل المحدث للأشياء، والذي ليس لوجوده ابتداء ولا له انتهاء، لا يمكن أن يكون ـ كما سنبيِّن بعد ـ شيئاً غير الخالق الذي دعانا إلى عبادته أنبياء الله عليهم السلام. فوجود الخالق إذن ليس بالشيء الذي يفترض عبثاً، ولا هو بالنقطة التي نقف عندها تحكماً، وإنما هو أمر يستنتج استنتاجاً عقلياً قاطعاً من طبيعة هذا الواقع المشاهد.